الأهرام

المصدر : الحيـــــــاة
التاريخ : ١١ اكتوبـــــر ١٩٩٥

بيريز يواجه قلق النخبة في إسرائيل

جميل مطر *

■ يفخر شمعون بيريز بانه من السياسيين القلائل في الشرق الاوسط الذين تتوفر لديهم رؤية او رؤى لمستقبل اسرائيل ومستقبل المنطقة. ويوافق بعض المراقبين الاوروبيين على ذلك ويقولون انه فعلا من السياسيين القلائل في الشرق الاوسط الذين اختاروا التفكير في المستقبل هواية، ثم اختاروا صناعة المستقبل حرفة. وهو ايضا واحد في قلة نجحت في ان تفرض على سياسيين كثيرين - في اسرائيل وبعض دول المنطقة - الاقتناع بان رؤية هذه القلة للمستقبل هي الرؤية الوحيدة، اي نجحت في اقناع اخرين من السياسيين بضرورة المشاركة في تبني ثم تحويل هذه الرؤية بالذات من دون غيرها الى «مستقبل واقع».

لقد سنحت لي فرصة مشاهدة شمعون بيريز على شاشة تلفزيون يتعامل مع حصار من اسئلة مثيرة وجهها اليه عدد من كبار المفكرين والصحافيين الاسرائيليين. وفي نهاية الحصار تكونت عندي ملاحظتان. لاحظت ان الاسئلة عبرت عن قلق حقيقي لدى النخبة الاسرائيلية نتيجة التحولات السريعة التي حدثت خلال العامين الماضيين على صعيد العلاقات مع الدول العربية ومع الفلسطينيين، كما عبرت عن خوف لا مبالغة فيه على مصير اوضاع وامور اعتقد الاسرائيليون لمدة طويلة انها استقرت ولا عودة عنها. اما الملاحظة الثانية فتعلقت بالثقة الهائلة في النفس التي يتمتع بها بيريز وبوضوح رؤيته المستقبلية في ان ما استقر ولا عودة عنه هو ما استجد من تطورات عالمية واقليمية خلال الاعوام الاخيرة وليس تلك الامور والاوضاع التي كان الاسرائيليون يظنون خطا انها استقرت ولن تتغير.

دارت الاسئلة حول محاور وقضايا محددة اهمها اربعة: الهوية والمستوطنون والسيادة «الطفولة السياسية» للسلطة الفلسطينية. واشترك المفكرون والصحافيون جميعا في تصوير حال القلق العام الذي يسود قطاعات مهمة في الراي العام الاسرائيلي بالنسبة لهذه القضايا والمحاور. اجتمعوا على ان مسارات وعلاقات التسوية بين اسرائيل والدول العربية وخصوصا المسار الاسرائيلي الفلسطيني قد تهدد في المستقبل الهوية الاسرائيلية، وتهدد بالفعل وستهدد بشكل اكبر المستوطنات الاسرائيلية وحياة المستوطنين الاسرائيليين، كما ان بعض التنازلات الاسرائيلية في هذه التسويات تتنفس من سيادة دولة اسرائيل. ثم اجتمعوا اخيرا على ان الشعب في اسرائيل غير مطمئن لالتزامات وسلوكيات السلطة الوطنية الفلسطينية في المستقبل باعتبارها سلطة في حال طفولة سياسية او سلطة لم تمارس الحكم من قبل، اي انها في نظر النخبة الاسرائيلية سلطة لم تنضج بعد.

وكما توقعت كان رد بيريز جزءا لا ينفصل عن رؤيته للمستقبل وكانه لا يعترف للحاضر إلا بدور ثانوي او محطة فرعية في الطريق، اى مستقبل قسماته بالنسبة لبيريز واضحة. هذا المستقبل المحتوم هو الذي يصنع الحاضر وليس العكس يقول مثلا ما معناه انه يستطيع ان يتفهم القلق على الهوية «الاسرائيلية» في اطار اندماج سياسي واقتصادي من النوع الذي يتصوره حادثا في الشرق الاوسط بعد التصورات ولكن على هؤلاء القلقين ان ينظروا الى العرب ليعرفوا ان الذي يجب ان يقلق هم العرب وليس الاسرائيليين. واضاف انه سمع من احد كبار المسؤولين العرب ان معظم المثقفين العرب يتصرفون في ندواته ومؤتمراته وكان الشرق اوسطية صارت هويتهم، وان اغلبهم لم يعد يكرر حديث العرب والعروبة والهوية العربية ويعلق بيريز على ما سمعه من المسؤول العربي الكبير بانه لم يستغرب هذا التصريح لانه كان يتوقع هذا النوع من السلوك من جانب المثقفين العرب. فالعروبة في رايه واحدة من هويات متعددة متساوية او متقاربة في العقل او في الوجدان العربي الواحد، وبالتالي فمن السهولة بمكان ان يقوم العربي باستبدال هوية باخرى دون ان يحدث خلل كبير في توازنه الثقافي والحضاري او النفسي، وهنا يختلف الاسرائيليون، «فالاسرائيلية» هي الاقل قيمة بين هويات المواطن اليهودي، فهناك هوية اهم ولها اولوية ولذلك يجوز ان تتاثر الهوية الاسرائيلية اذا زاد الاختلاط بين العرب والاسرائيليين وان تاثرت فلا يوجد ما يدعو الاسرائيليين الى القلق.

فالاسرائيلي في بداية الامر ونهايته يهودي الهوية واليهودية دين وقومية هي بهذا التوصيف فريدة بين الاديان وبين القوميات ولذلك فهي لا تتاثر باي متغير طارق او طويل الامد ويقول بيريز انه بينما ينتظر ان يتبنى كثير من العرب هوية شرق اوسطية بديلا عن الهوية العربية فانه لا يتصور ان يهوديا واحدا (اي اسرائيليا واحدا) يمكن ان يتبنى مثل هذه الهوية كبديل عن هويته اليهودية. فالهويتان ليستا متنافستين ولا متقاربتان في المكانة او في المعنى. ويعتقد بيريز ان ما يهم الاسرائيليين بالدرجة الاولى هو الامة، فاليهود عاشوا كامة بغير دولة مئات بل الاف السنين الامة اولا وثانيا وعاشرا وبعدما تاتي الدولة وما يحدث للدولة مهما بلغت خطورته لا يجب ان يؤثر على الامة. ثم قارن بين الاسرائيليين والفلسطينيين في موضوع الهوية، فقال إن الفلسطينيين ليسوا امة وبالتالي فاي دولة يقيمونها ستكون دولة ضيقة لانها ان تكون «دولة امة» ثم لمح ان اسرائيل لن تسمح لها الا بان تكون دولة ضعيفة.

واستنادا الى الحكمة التي يرددها بيريز والقائلة بان الامة فوق الدولة واهم منها استطرد في الرد على موضوع السيادة المنقوصة للدولة الاسرائيلية في ظل سلام واندماج شرق اوسطي. قال ما يفيد ان سيادة اسرائيل كسيادة اي دولة من دول العالم تتقلص وسيستمر التقلص خلال القرن الحادي والعشرين. وشرح ما نعرفه عن الاتجاهات «الكونية» في الاقتصاد والمال والتجارة وان اسرائيل كدولة عليها ان تقبل ما يقبله غيرها من الدول فقد قبلت معظم دول العالم - مجبرة او راضية او ساعية - الانتقاص من السيادة كواقع جديد في السياسة الدولية والسياسات الداخلية، فالسيادة الان ما هي سوى تغيير موروث عن عصر انتهى او ينتهي.

ولا شك ان بيريز بترديده نغمة السياد المنقوصة يعد الاسرائيليين لحقيقة ان اسرائيل كغيرها من الدول ستتعامل اكثر فاكثر مع واقع دولي ينتقص من سيادتها، وان هذه القلعة الحصينة المنعزلة والمترفعة أن لها ان «تتطبع» مع المنطقة الواقعة فيها اولا ثم مع العالم. وربما كان يرد على دعوة زعماء في يهود الشتات قلقون على مستقبل اسرائيل في ظل السلام، وهي الدعوة القائلة بان تتحول اسرائيل لتصبح «الدولة - العالم» او الدولة عابرة الحدود، بمعنى ان تتوثق الصلات المؤسسية بينها وبين يهود الشتات اكثر مما هي وثيقة فتصير جمعياتهم ومنظماتهم ومؤسساتهم فروعا واجهزة ودوائر تابعة مباشرة للدولة الاسرائيلية. بمعني آخر ان لا تتقيد اسرائيل بظروفها الاقليمية بل تستفيد من كونها دولة شبه عالمية. على كل حال بيريز لم يقل هذا، ولكنه يردد اهمية الاستعداد للتاقلم مع عالم القرن الحادي والعشرين، وهو عالم مختلف تماما عن العالم الذي نشات ثم توسعت الى ان هيمنت فيه اسرائيل.

وفي حديثه عن المستوطنين لم يخف بيريز رفضه لتطرف وتشدد بعض تيارات الاستطيان ولكنه في الوقت نفسه اعرب عن ان القلق عليهم غير وارد. فالمستوطنون الذين سيواصلون العيش داخل دولة او كيان فلسطيني يقابلهم وفي اعداد اكبر كثيرا فلسطينيون يعيشون داخل الدولة الاسرائيلية لم يحاول ان يكون غامضا حول قصده من هذه المقابلة بين المستوطنين والفلسطينيين. فالفلسطينيون في اسرائيل ضمانة لسلامة وامن ورفاهية المستوطنين، وهذا في افضل الاحوال او رهائن في احوال اخرى، وانا شخصيا لم استغرب صدور هذا التلويح او التصريح من بيريز، فالظروف السياسية والاجتماعية بل والاقتصادية التي يعيش فيها الفلسطينيون المقيمون في اسرائيل واصرار اسرائيل على ان يستمر وضعهم كاقلية محرومة من حقوق كثيرة تؤكد انه لا توجد نية لديهم - او حتى تشجيعهم على الاندماج - في المجتمع وستستمر السياسة الاسرائيلية في التعامل معهم باعتبارهم امتداد للدولة او للكيان الفلسطيني الناشئ تماما كالمستوطنين الذين سيكونون امتدادا للدولة الاسرائيلية.

اما عن قلق النخبة الاسرائيلية المثقفة بسبب زعمها ان السلطة الوطنية الفلسطينية ستظل لفترة تطول او تقصر سياسية غير ناجحة بسبب انعدام تجربتها في الحكم والادارة فيقول بيريز إنهم - اي الاسرائيليين - واعون تماما لهذا الامر، والحل موجود لتفادي اي عواقب او تهورات ناتجة عما يسميه بعض الاسرائيليين «طفولة» السلطة الفلسطينية. يوجد هذا الحل في خطوتين تتحقق الخطوة الاولى عندما تتشكل الكونفدرالية الثنائية الفلسطينية الاسرائيلية، وتتحقق الخطوة الثانية عندما تقوم الكونفدرالية الثلاثية اي الكونفيديرالية الاسرائيلية الاردنية الفلسطينية. افهم من هذا ان بيريز يرى ان احدى اهم وظائف الكونفيديراليتين «حضانة» القيادة السياسية الفلسطينية، وان لاسرائيل دورا وللاردن دورا آخر مختلفا ولكن كلاهما ضروري خلال مرحلة التنشئة والانضاج.

ايا كان راينا في رؤية او رؤى شمعون بيريز، اتصور انه من الضروري ان نتعمق في فهمها. ولكن الاكثر ضرورة ان تتشجع النخب السياسية العربية وخصوصا القادة على مستوى بيريز او اقل، فتصنع رؤية او رؤى وتطرحها للنقاش العام، ولعلها تكون افضل ولو قليلا من هذه الرؤى، التي يصنعها سياسيون يعلنون في كل تصريح انه لن توجد هوية عربية ولا اسلامية ولا فلسطينية في الشرق الاوسط الجديد.

---

* كاتب وخبير سياسي مصري.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية